مغزى الصراع

كسب الحرب وتجديد النفوس
وتهيئتها للعصر المقبل

ان هذا الصراع هو الناحية الحربية من ثورة عالمية على الحضارة . وقد تهيأت الثورة ، في ثنايا الانحلال الطارىء على أخلاق الافراد والجماعات ، فسبقت نشوب الحرب وستمتد بعدها ، إن لم تطهر الأمم الينابيع التي تمتح منها ، وان لم تجدد النفوس ، بينما هي تثني كل عضل وتشد كل عصب ، لكي تتغلب على الذين انتضوا السلاح في وجه الحضارة . والواقع ان العملين عمل واحد ، يتعذر فصل احدهما عن الآخر

وما الحضارة ؟ هي مجموعة من القواعد يلتزمها الناس في معاملاتهم ، ومن العهود يحترمونها ، ومن المنشآت والعادات والتقاليد أفرغت فيها تجارب الامم واختيارها طوال القرون الماضية . وجذورها ممتدة منتشرة ، فيما أخذ الناس أنفسهم به من مبادىء ثقافة ودين وانسانية . والناس يأخذون بهذه المبادىء لقيمتهم ، أنها تزرع الصالح ، وتروض الباطل فلا يستفحل شره . فاذا أقدم الناس على تحطيم القواعد ، واستباحة العهود بدلاً من تعديلها ملاءمة للزمن فالمرض ماش في جذور الحضارة [illegible] وورقها

وما الهمجية ؟ ان ماهيتها واحدة وان كانت طبيعتها مزدوجة . فهي تنتهي دائماً الى الايمان بالقوة . انها تتنكر للقواعد المرعية والعادات وتتحكم بها ، لانه اذا كان السلطان غاية ، ولذا كان السلطان يكتسب بتحطيم القواعد والتنكر للعادات والعهود ، فليكن . وهي للسبب نفسه تهدم المنشآت التي أحاطتها القرون بهيبتها . فالهيئة الدينية ــ كالكنيسة والجامع ــ والاسرة والمدرسة ، لا قيام لها الا اذا كان لها سلطان ما في دائرتها الخاصة . ولكن الهمجي الذي يسعى الى السلطان المادي [illegible] كما وصفه رتراند رسل في كتابه [illegible] لا يسعه أن يعترف بسلطان آخر غير سلطانه . أي عليه ان يحكم بالارهاب ، ونعني بغير الارهاب حكم القانون ونواميس الاخلاق والاجتماع ، الا حكم الارهاب

***

وللهمجية وجهان ، أحدهما يولد في ثنايا الحضارة نفسها ، فينخر فيها كالسوس ، ويوهن

الفضائل والأخلاق ، والآخر يهددها من الخارج بالعنف . ولكنّ الهمجية سواء أهذا كانت أم ذاك ، وسواء أصفة من صفات الشيخوخة كانت ، أم من صفات الفتوّة والاندفاع ، فهي في الحالين العدو الدائم للحضارة . وعندما تتراخى قوة الحضارة ، يظهر الهمجي على صفحات التاريخ . ومهما يتنوّع شكله ، فانهُ في المقام الأول ، متحفز في قلب المرء ووجدانه ليدفع بصاحبه الى هدم حضارته ، بايهان ايمانه فيها والوسوسة له بأن الفضائل الاصيلة ، لا مكان لها ولا منزلة

• من ثمار كل حضارة صناعة يولدها العلم القائم . ولكن صحة الحضارة لا تقاس دائماً بارتقاء صناعتها . فآتي الصناعة في العصر الحديث عظيمة . ولكن استعمالها مرهون بأخلاق الافراد والجماعات ، فاما أن تستعمل أداة لصون لباب الحضارة وتوسيع آفاقها وتعميم نعمها ، وإما لهدمها . وقد تبقى الصناعة مزدهرة في حضارة دبّ فيها دبيب الفساد . ولكنها لن تزدهر طويلاً . اذ لا بد أن يقوم الهمجي ، عندما يطغى الفساد ، فيستعمل الآلات للفتك بمخترعيها . واذن فلا مفرّ للانسان ، في ظل حكم الارهاب ، من الانحدار في طريق ، اقتضى منه التصعيد فيه ، نصباً وضنىً وقروناً طويلة . ففي ظل حكم من هذا القبيل ، يغدو العلم عقيماً ، ويدب في الصناعة نفسها دبيب الفناء . فالعقل الانساني ، لا يكون مبدعاً خلاقاً ، إلاّ اذا كان حرّاً . والهمجي في نفوسنا هو ألد أعدائنا ، وأقوى عدة لخصوم الحضارة عليها

فالنضال اذن نضالان . نضال لكسب الحرب ، أي لهزيمة القوى الخارجية التي تهدد الحضارة بالعنف . ونضال لتجديد النفوس وتهيئتها للعصر المقبل . ولا خير يجنى من دحر العدو الخارجي ، إلاّ اذا دحر العدو الداخلي كذلك

***

ويخطئ من يظن أن الشعوب ترضى بمعاناة هذه التجارب والمحن لأنها ترغب في العودة الى الحالة التي سبقت نشوب الحرب . بل هي راضية بما تعاني وتقاسي في سبيل أمل ، يتيح لها فرصة أخرى لكتب في تاريخ البشر فصلاً جديداً . وما هذا [illegible] الأمل المعقود على أن يتعلم الناس أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم حكماً صالحاً ، وأن يحصلوا على نصيب عادل من خيرات الأرض ونتاج العمل . وأن يشتركوا في بناء مساكن أجمل وأصح من مساكنهم الآن ، وأن ينشئوا حدائق وميادين وطرقاً ومعامل ، تسبغ على الحياة في المدن والريف مسحة من الجمال والرضى ، وأن يتقاسموا فرصة المتعة بالحق في المدارس والجامعات ، وأن يعربوا عن آرائهم في الصحف والكتب والاذاعات وغيرها اعراباً أحكم وأبلغ من اعرابهم الآن ، وأن يتاح لهم الاقبال على أعمالهم وعاداتهم ، كل يوم في خشوع وانصاف وسماحة وكرامة

مثل كالية بعيدة المنال ! وانها لكذلك . ولكنها في الواقع لا تعين الاّ طرفاً من الأمل البشري الذي يمكن تحقيق بعضه، اذا كان الناس أحراراً ، ويسعون حقاً ورشداً الى انشاء عالم أصلح من العالم الذي هوى ولن يعود . فالحرب ، انما تدور رحاها في سبيل هذا الأمل ، وكل امرىء يستطيع أن يبدي خدمة الى تحقيق يسير من هذا الأمل اذا بدأ في نفسه

وقد قال الفيلسوف برتراند رسل في هذا المعنى: « قد يبدو لك من الغرور أن تظن ان في وسعك أسداء يد عظيمة لتحسين أحوال الناس . ولكن هذا الظن وهمٌ . فعليك أن توقن بأنك قادر على تحسين العالم . ان الاجتماع الخيّر قوامه أفراد أخيار ، كالكثرة التي تنتخب الرئيس قوامها أصوات الافراد من الناخبين . وفي وسع كل امرىء أن يبدي صنيعاً يبثّ شعور اللطف والرضا في بيئته بدلاً من تحريك روح السخط والغضب ، وبتعزيز الميل الى التعقل دون الميل الى الهستريا ، وبنشر السعادة والرخاء بدلاً من البؤس والشقاء . ومجموع هذه الأعمال هو الفارق بين الخير والشر في العالم . فاذا كنت قطباً سياسيًّا كانت بيئتك واسعة . واذا كنت أحد الناس ، كانت بيئتك محدودة . ففي الحال الأولى تستطيع كثيراً ، وفي الثانية تستطيع قليلاً ، ولكنك على كلّ حال تستطيع، ويجب أن تصنع شيئاً ما . فكل والد أو والدة ، ينشىء ولدهُ بحيث يكون أميلَ إلى التعقل والدماثة ، انما يعمل ما يجب ان يعمل لاصلاح العالم وإقامة أركان السعادة فيه ، وكلٌّ من يقاوم النزوع الى التعصب — وهو نزوع يحيق بنا جميعاً — يضع لبنةً في بناء مجتمع تستطيع الجماعات المختلفة فيه أن تعيش في مودة متبادلة . قد تقول : ما أقلّ مايستطيعهُ امرؤٌ واحد ضد شرّ كبير ! ولكن الشرور الكبيرة مردُّها الى اجتماع شرور صغيرة . والخير العام ينشأ على المنوال نفسه

« وقد تقول ما يستطيعهُ امرؤٌ فردٌ ضد العالم . ولكنك لو كنت شريراً لكان نصيبك من الشر الاكبر يسيراً كذلك . فالخير والشرّ على السواء ينبعان من أعمال الافراد ، ولا يقتصر ذلك على الافراد المميزين بل يشمل جميع الرجال والنساء الذين تتقوم الجماعات بهم »

واذا كان في الوسع استخراج عبرة أساسية واحدة ، من زوايا الحرب ، وقد دخلت سنتها الرابعة ، فهذه العبرة مؤداها ان السيطرة الغاشمة على الشعوب المغلوبة المستبدّ بها ، قد وضعت الامم الحرة والمغلوبة على أمرها سواء بسواء ، انها تواجه امتحاناً لقدرتها اولاً ، ولحقها ثانياً ، في أن تعيش حرة . لأن ثمن الحرية ، هو اليقظة الدائمة والكفاح المستمر ، فهي تقتضي من أبنائها تحمل التبعات العظيمة الناشئة عن التمتع بمزاياها ، واذن فالبسالة والتضحية والصلابة في ميادين الانتاج والقتال ، يجب ان يداوقها ايمان صادق بقيمة الاستقامة الخلقية وكرامة الفرد البشري